

الذي نعمله

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاءتني من الأديب صاحب الامضاء رسالة يقول في ختامها :

... قد رأيت بما لي من حق طالب العلم على أستاذه أن أطلب إلى سيدي الأستاذ أن يتيح هذا المقال بنفحة أخرى تبين لنا ما نعمله لنبلغ من أمرنا ما نريد ، وأرجو ألا يعتبر مني هذا اقتراحاً أو ما في معناه وإنما هو بعض استزادة من خير عليك العميق التنظيف

احمد حنفي نصار القروصي

وهذا سؤال حقيق بأن يسأل ، وكنت أود أن يسأل ، فهو حقيق بأن يجاب

وجوابي للأديب أن حاجتنا الكبرى إنما هي أن نعلم كيف نريد لا أن نعلم كيف نعمل . فإذا أردنا عملنا ؛ وكل مريد عامل وعارف بوسيلته إلى إنجاز مراده

مضى زمن والناس يتحدثون عن الإرادة والعمل كأنهما قدرتان مفصولتان ، وعن العاطفة والفكر كأنهما شيتان لا يتلاقيان ، وعن الخيال وفهم الواقع كأنهما ملكتان نقيضتان ، إلى آخر ما يفرقون ويقابلون بين ملكات الطباع وخصائص الأذهان . وهذا خطأ في تصوير الحقائق يتبعه لا محالة خطأ في تصوير العلاج والإصلاح

ليست الإرادة والعمل ولا غيرهما من الملكات والطباع خطين متلاحقين يبدأ أحدهما عند نهاية الآخر ، أو جسمين متحيزين لا يجتمعان في مكان واحد ، وإنما هما مظهران من قوة النفس يصدران عن معين لا يتجزأ ولا يتفصل بالحدود والمعالم . فإذا امتلأت النفس بالقدرة على الإرادة فقد امتلأت بالقدرة على العمل في وقت واحد وفي صورة واحدة ؛ ولن يفشل الفاشل في عمله . وقد تهيأت للعمل أسبابه - إلا لأنه ناقص الإرادة

أرأيت إلى الناس وهم يطلبون السيادة ولا يبلغها منهم إلا قليل ؟ ما بال قوم منهم يبلغونها وأقوام ينكلون عنها خاسمين ؟

إنما يبلغها من بلغ لأنه أرادها ولم يرد غيرها . فهو سيد وإن تراخى الزمن دون الاقرار له بالسيادة ؛ وهو سيد لأنه لن يكون عبداً وإن أخطأته الذرائع إلى حين أما الذي ينبغي أن يسود ولا يأبى أن يكون عبداً فأين هو من إرادة السيادة ؟

وأما الذي ينبغي أن يسود ولا يختلف عنده مقام السيد الرفيع ومقام العبد الذليل فأين هو من إرادة السيادة ؟ وأما الذي ينبغي أن يسود ويحسب أن الناس يسودونه قبل أن يسود عليهم فأين هو من إرادة السيادة ؟

قل إنه يتمنى أن يسود ، أو قل إنه يحلم بأن يسود ، أو قل إنه لا يكره أن يسود ؛ فأما أنه يريد فعاذ الإرادة أن تجتمع ونقيضها في عزيمة واحدة ؛ ومعاذ الإرادة أن تجتمع ولا يتبعها عمل ولا يتبع العمل نجاح .

لماذا لا نعمل ؟ لأننا لا نريد ، ولماذا لا نريد ؟ لأن زادنا من الحس والوعي والخيال قليل

ومع هذا نحن لا نزهى بشئ كما نزهى بفرط الحس وفرط الوعي وفرط الخيال . فهل رأيت إلى بعد ما بين الحقيقة والدعوى ، وبعد ما بين وصف الداء ووصف العلاج ؟

املأ النفس بالحس والوعي والخيال تملأها بالحركة والإرادة غير منفصلين . وانظر إلى الطفل الدارج لماذا لا يهدأ ؟ لأنه قرأ الفصول والمباحث في فضل الحركة والنشاط ؛ لأن أحداً أمره أو أحداً أغراه ؛ كلا ؛ ولكنه يتحرك وينشط لأنه شعبان من الحس شعبان من إرادة العمل الذي يهواه . ولو سبب غير ذلك دعاه إلى الحركة والنشاط لما استجاب . إذا أحسننا لم نصبر على الركود ، وإذا نفطنا الركود فإذا أمامنا غير الحركة والعمل ؟ وماذا أمامنا غير الظفر والفلاح ؟ لننس كل النسيان وأشد النسيان أننا - معاشر الشرقيين

قوم مصابون بفرط الحس والوعى والخيال . فأننا لأبرأ
الناس من هذا المصاب إن كان مصاباً . وإننا لأحوج الناس
إلى هذا الشفاء ، وهو شفاء

وآية ذلك أن نسأل كم عدد المعبرين عن الحس والخيال
في الشرق كله ؟ وكم عدد هؤلاء في أمة واحدة من أمم الدنيا
المريدة العاملة ؟

كم في أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة السيدة الأيدة
من مصورين ومثالين ؟ وكم فيها من موسيقيين ومنشدين ؟
وكم فيها من مثلين ومخرجين وكتاب روايات وشعراء وأدباء ؟
وكم فيها من متاحف وتماثيل ؟ وكم فيها من باعة أزهار وأساتذة
تجميل ؟ وكم فيها من مغامرين مقاديرم يبيعون الواقع بالخيال ،
ويستغنون عن الممكن الميسور بما يلوح للعاجزين كأنه محال ؟
كم من هؤلاء في أمة واحدة وكم منهم في الشرق كله هذا
الزمان وأخشي أن أقول في جميع الأزمان ؟

إن لم تكن الحقيقة أن الشرق مسكين غاية المسكنة مدقع
غاية الادقاع في ازواد الحس والخيال ، فالأسطورة الكبرى
ولا ريب هي أنه مسرف في حسه وخياله ، مفرط في شطحاته
وأماله .

فما بالناس كيف نعمل ، وأولى بنا أن نحار كيف نحس
وتخيل ؟ وما بالناس ننشد أسباباً للحركة والعمل غير أن غملاً
نفوسنا بالاحساس كأنما هذا وحده غير كاف ؟ وكأنما نحتاج
بعد الاحساس إلى مزيد ؟

إن الانسان ليثور من السخط والغضب حين ينظر إلى
فقرائنا العجزة المعدمين وهم يتيهون من الغنى الموهوم ،
ويتعطرسون بالثراء المعدوم . وسمعهم يتغنون بالحب مثلاً
والحب فيض في الشعور واتساع في آفاق الوجدان ؟ وسمعهم
يتغنون به وهو صنوف صنوف صنوف لا تنحصر في معنى
واحد ولا في نمط فريد : حب الناشئين غير حب الكهول ،
وحب التفاهم والتعاطف غير حب المتع والشهوات ، وحب
المرأة المطواع اللعوب غير حب المرأة العصية الشموس ،
وحب المنكوب اللاجئ إلى حرم العاطفة غير حب السعيد

الناعم بما في يديه ، وحب الواصل غير حب المرتاب ، وحب
الوسيمة القسيمة غير حب الرقيقة الظريفة ، وحبك الأول
غير حبك بعد تجربة ومراس ، وصنوف غير ذلك تعدد بعدد
الرجال والنساء وعدد الأحيان والأعمار والمناسبات .

اسمعهم يتغنون بهذه العاطفة الشاملة الداوية العميقة
الرحية التي لا عداد لها بالألوان وإن عدت باللفظ في كلمة
واحدة ، وقل لي ماذا تسمع غير نغمة واحدة معروضة في
شئ أساليب ؟ ماذا تسمع غير أن حبيبة هاجرة أبداً وحبيبا
سيموت أبداً وفوق ذلك قطرات هذ من دموع وشهقات
هناك من أنين ؟

ودع هذا واسمع المنشد أو المنشدة لا يكادان يفرغان من
نغمة مبدوءة حتى يتبعهما ضجيج وزعيق وقرع وخبط وتصفيق
كله نشوز واختلاط ومنافاة أبعد المناواة لسماع الألحان
والأنغام . وقل لي : هل تصدق أن هؤلاء السامعين يستمعون
إلى موسيقى ويصغون إلى فن وينعمون بتعبير جميل وتنسيق
لا يطبق الاختلال ؟

فأما الموسيقى والنشوز والخبط والزعيق فحال أن يجتمع
هواها في أذن واحدة في لحظة واحدة ؛ وأما الذي يجتمع مع
النشوز والخبط والزعيق فهو تخطيط الجسد المحموم بحمى البهيمية
لا تميز فيه ولا ذوق ولا خيال

علم الله ما أصغيت إلى جمع من هؤلاء الناعقين الناهقين
ولا توسمت ما يزهون به من « حساسة » وظرافة الا تلبست
في يدى موضع السوط ألهب به تلك « الحساسة » وأطير
به تلك « الظرافة » وأثبت لهم بالسوط وحده . ولا اثبات
بغيره لأمثال هؤلاء . أنهم بلداء بلداء بلداء ، وانهم يغنون
النفوس من فرط كونهم بلداء غارقين في بلاد لا تفيق

لا يا أساة الشرق الحزين والمشفقين عليه !
داووه من نقص الاحساس لا من فرط الاحساس ؛
وداووه من ضنائة الخيال لا من سرف الخيال
وعلموه أن يحس تعبده أن يريد ؛ ومتى تعلم أن يريد فلا
حاجة به وراء ذلك إلى تعليم